

التكامل المعرفي: دلالاته الإبستمية ومبادئه الفلسفية

Cognitive integration: its epistemic implications and philosophical principles

رابح رزيق

جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل

rabahrezig6@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/03/30

تاريخ القبول: 2025/03/29

تاريخ الاستلام: 2025/01/20

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى محاولة الوقوف عند مسألة التكامل المعرفي بين العلوم، وقراءتها من زاوية الدلالات المعرفية التي تحيل إليها، أولاً، ثم من زاوية المبادئ الفلسفية العامة التي تستند عليها، ثانياً، وهذه المسألة، بلا شك، هي إحدى المسائل الهامة التي يتم طرحها اليوم على الساحة الأكاديمية في الشرق والغرب، ولعل أهمية الوقوف عندها تجد مبرراتها الموضوعية في خطورة التحديات التي تعيشها البشرية اليوم على كافة المستويات، الاقتصادية والتربوية ومجال الطب والرعاية الصحية والبيئة والمناخ والذكاء الاصطناعي وغيرها من التحديات، لذلك أصبح التكامل المعرفي يطرح نفسه بقوة، كحتمية لا يمكن تجاهلها، وفي هذا السياق، توصلنا بعد الاطلاع والبحث في مختلف النصوص التي تناولت هذا الموضوع، من الوصول إلى جملة من النتائج الهامة، التي كان من أبرزها الوعي بأهمية وضروية التكامل المعرفي والوعي من جهة مقابلة بخطورة التفكك والانغلاق الذي يمارسه بعض المتخصصين في بعض المجالات المعرفية، سواء بوعي منهم أو بغير وعي، إن التحديات الراهنة التي نواجهها اليوم في ظل ثورة المعلومات والذكاء الاصطناعي تستدعي منا ضرورة الاستجابة السريعة للعمل على خلق جسور للتواصل، أخذاً وعطاءً، ما بين جميع العلوم والتخصصات، ولا شك أن أي خلل أو إرباك ناتج عن إقصاء أو تجاهل علم من العلوم أو فن من الفنون يعني إرباكاً وخللاً في الإنسان وفي البناء الاجتماعي والحضاري كله.

كلمات مفتاحية: المعرفة، التكامل، الفلسفة، التخصص، العلوم الإنسانية والاجتماعية.

Abstract:

This research aims to try to examine the issue of cognitive integration between the sciences, and read it from the angle of the cognitive connotations that it refers to, first, and then from the angle of the general philosophical principles on which it is based, second, and this issue seems to be one of the important issues that is being raised on the scene today. The academy in the East and the West, and

perhaps the importance of considering it finds its objective justification in the seriousness of the challenges that humanity is experiencing today at all levels, economic, educational, the field of medicine, health care, the environment, climate, artificial intelligence, and other new challenges. Therefore, it seems that knowledge integration is now presenting itself strongly, as an inevitable inevitability. Can be ignored, In this context, after reviewing and researching various texts that dealt with this topic, we reached a number of important results, the most prominent of which was awareness of the importance and necessity of cognitive integration and awareness, on the one hand, of the danger of disintegration and isolation practiced by some specialists in some fields of knowledge, whether Consciously or unconsciously, the current challenges we face today in light of the information revolution and artificial intelligence require us to respond quickly to work to create bridges of communication, give and take, between all sciences and specializations. There is no doubt that any imbalance or confusion results from exclusion or neglect. A science or an art means confusion and defect in man and in the social and cultural structure itself.

Keywords: Knowledge, integration, philosophy, specialization, humanities and social sciences.

1. مقدمة:

في نهاية خمسينيات القرن الماضي لاحظ عالم الفيزياء والروائي البريطاني "تشارلز بيرسي سنو" Charles Percy Snow (1905 - 1980)، الفجوة القائمة في التواصل بين أولئك الذين يتخصصون في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وأولئك الذين يتخصصون في العلوم الطبيعية والتطبيقية، فانتقاله الدائم بين هاذين المجالين جعله يدق ناقوس الخطر بخصوص المعضلة التي أسماها "معضلة الثقافتين" The dilemma of two cultures، يقول سنو إنه كان يشعر باستمرار بأنه ينتقل بين مجموعتين متماثلتين في الذكاء ومتطابقتين في الأصل، وغير مختلفتين اختلافاً كبيراً في المنبت الاجتماعي، إلا أنهما توقفا تماماً عن التحوار، ولا يجمع بينهما في المحيط الفكري والأخلاقي النفسي إلا النزر اليسير.

من هنا كتب "سنو" تقريراً بعنوان: "الثقافتان: the two cultures"، وأشار إلى أن هذا الواقع من شأنه أن يؤدي إلى انقسام حاد داخل المجتمع، ولذلك دعا إلى ضرورة التكامل بين الثقافتين، وقد أثار تقريره الذي تقدم به إلى جامعة كامبرج سنة 1959 نقاشات واسعة تجاوزت أصدائها تخوم المملكة المتحدة، وفي الحقيقة فإن الملاحظة التي تقدم به سنو هي اليوم أكثر حضوراً وتمظهراً، ولا شك في أن السياسات التربوية التي تعتمد عليها الدول، وثقافة المجتمعات القائمة على التقليد هي التي ساعدت على تعميق هذه الفجوة والفصل الحاد بين الثقافة الطبيعية والثقافة الإنسانية، من هنا تبدو الحاجة اليوم إلى ما يسمى "التكامل المعرفي" ضرورة ملحة لتجاوز كثيراً من المشكلات التي تواجه العلم والإنسان والمجتمع.

2. إشكالية البحث وأسئلته الفرعية:

إن الإشكالية العامة التي يتناولها هذا البحث تتعلق أساساً بمحاولة الوقوف على مسألة التكامل المعرفي من خلال التركيز بشكل أساسي على الدلالات الإبستمية لهذا المفهوم، وشبكة المفاهيم المرتبطة به ابتداءً، ثم محاولة تحديد المبادئ العامة التي يتأسس عليها القول والدعوة إلى الأخذ بهذا المفهوم الجديد القديم في الآن نفسه.

وفي ضوء ذلك تتفرع من الإشكالية المركزية أسئلة فرعية من قبيل: ما هي مبررات تناول إشكالية التكامل المعرفي؟ وما سياقها العام؟ ما دلالات المعرفة؟ ما دلالات التكامل؟ هل ثمة تداخل بين مفهوم التكامل المعرفي وغيره من المفاهيم؟ هل يمكننا ضبط دلالة التكامل المعرفي ضبطاً دقيقاً؟ ما هي المبادئ الفلسفية العامة للتكامل المعرفي؟ وهل تعد هذه المبادئ دليلاً قوياً على ضرورة الأخذ بهذا المفهوم؟ هل يمثل الأخذ بمفهوم التكامل المعرفي اليوم ضرورة ملحة في ظل التحديات الجديدة التي تواجهها البشرية؟

3. منهج البحث وفرضياته:

للإجابة على الإشكالية المحورية للبحث، والأسئلة المتفرعة عنها، اعتمدنا على بعض المؤلفات الأساسية التي كُتبت في هذا الشأن، من قبيل كتاب: "تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم" لمحمد همام، وكتاب:

"منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية" لفتحي حسن ملكاوي، وحاولنا إمعان النظر والتأمل في مثل هذه النصوص ومقارنة بعضها ببعض، وإضافة إلى تحليل تلك النصوص ووصف مواقفها، اعتمدنا آلية النقد في كل مرة شعرنا بالحاجة إلى ذلك، وقد حاولنا في كل ذلك الابتعاد عن الذاتية وتوخي الموضوعية قدر الإمكان، مع إحساسنا بالمسؤولية والأمانة العلمية في توصيل الأفكار وعرضها كما هي، كاملة دون تضخيم، ودون اختزال أو تبسيط مخل.

وإلى جانب ذلك وضعنا سلفاً بعض الافتراضات التي نوجزها على نحوٍ مجمل فيما يلي:

أ - لا توجد معرفة مستقلة بذاتها استقلالاً تاماً بعيداً عن تأثير معارف أخرى سواء كانت قريبة أو بعيدة.

ب - التكامل المعرفي ضرورة حضارية ونهضوية تفرضها طبيعة الوعي والفكر الإنساني على مر التاريخ.

ج - التخصص، رغم الحاجة إليه وأهميته، إلا أنه يبدو عاجزاً اليوم عن الإجابة عن كثير من الأسئلة التي تثير قلق الإنسان باستمرار، إنه عاجز عن تفسير مختلف الظواهر تفسيراً شاملاً ومتكاملاً.

د - التكامل المعرفي، فضلاً عن كونه، رؤية منهجية ومعرفية للعلوم والمعارف، فهو كذلك أداة عملية لتحسين جودة الحياة الإنسانية في مجالات مختلفة، كالاقتصاد والصحة والتعليم والإدارة.

4. السياق العام ومبررات تناول إشكالية التكامل المعرفي:

لنتساءل أولاً، ما الجدوى من تناول هذه المسألة التي أصبح يتردد اسمها كثيراً اليوم تحت مسمى "التكامل المعرفي بين العلوم"؟ ما الجدوى؟ إذا أخذنا بعين الاعتبار أن البشرية كانت ولا تزال تمضي بلا توقف نحو مزيد من الانتاج العلمي والمعرفي الذي ينعكس مباشرة على جودة الحياة الإنسانية وتحسينها، دون أن نسمع مثلاً من ينادي بضرورة الانتباه إلى هذه المسألة وتطبيقها على أرض الواقع، لماذا "يتحمس" البعض في

اتجاه الدفع نحو إعطاء أهمية قصوى لهذه المسألة؟، هل ثمة ما يبررها حقا؟ إن الالتفات إلى مثل هذه الأسئلة ومحاولة البحث عن إجابات لها مبرر تماما وضروري من وجهة نظرنا، وذلك للاعتبارات التالية:

أ - من الملاحظ أن العلوم والمعارف في السياق الغربي قد تطورت في اتجاه أحادي، بمعنى أنه في فترة ما من تاريخ العلوم أصبحت المعرفة ذات بعد واحد، وهو البعد التجريبي والمادي، الذي يركز أكثر على الجانب المادي للطبيعة والإنسان على حد سواء، ويعد ذلك المبتدأ والمنتهى في الساحة المعرفية والعلمية، وهذا النزوع يبدو أنه كان على حساب الأهمية التي من المفترض أن تحظى بها ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية، وهو ما خلق في النهاية ما يسمى اليوم أزمة العلوم الغربية، وأزمة العقل الغربي، وأزمة الحداثة الغربية.

إن تغييب البعد الروحي والثقافي للبشرية، والفصل الحاد الذي حدث بين الطبيعة والثقافة هو الذي خلق توترا وأزمة على مستوى العلوم، وانعكس ذلك بدوره على الحياة الإنسانية برمتها، لذلك تأتي الدعوة في هذا السياق إلى إعادة الاعتبار للعلوم الروحية والانسانية، لا بد من إعادة الاعتبار للثقافة وللإنسانيات، ذلك أن الإنسان ليس ذو بعد واحد فقط، وهو البعد المادي الذي أعطته العلوم الغربية الأولوية القصوى، بل إن الإنسان فضلا عن تكوينه المادي له أيضا أبعاد متعددة ومختلفة، وعلى المعرفة أن تأخذ ذلك بعين الاعتبار، وتعطي أهمية للجانب الروحي والثقافي للإنسان مثلما تعطي أهمية للجانب المادي، من هنا نشأت الدعوة إلى التكامل المعرفي على اعتبار أنه البديل الذي يمكن تبنيه لتجاوز أزمة العلوم الغربية ذات البعد الأحادي.

ب - الدعوة إلى التكامل المعرفي لها ما يسوّغها بالنظر إلى النتائج السلبية التي أفرزتها إشكالية التخصص، وهي الإشكالية التي تمخضت عن الغلو الحاد في تبني تخصصات معرفية معينة دون الانفتاح على تخصصات أخرى، إلى الحد الذي خلق لدى بعض هذه التخصصات تحيزات معلنة وخفية، عادة ما يتم الإفصاح عنها، بين الباحثين والمتخصصين، على هامش ملتقيات البحث العلمي مثلا، منتجين بذلك مشهدا جديدا من

تصنيف العلوم، ومدشنيين لأزمات جديدة في مجال العلم والمعرفة، أزمات يخلقها الانعزال داخل التخصص الواحد، وعدم الرغبة في التواصل مع تخصصات معرفية أخرى، على أنه من المهم أن ننبه هنا إلى هذه ليست دعوة لإقصاء التخصص، بقدر ما هي دعوة للتنبيه على بعض السلبيات التي تتوسع على هامشه، لكن يبدو أنه «مهما تكلمنا عن أهمية التخصص في تعميق البحث العلمي، فلا بد من نقد ظاهرة التعصب الأعلى للتخصص، إذا التخصص المنغلق تماما دون بقية العلوم فكرة مستحيلة»¹.

لقد ارتبط تراجع الفكر الموسوعي الذي كانت الفلسفة حاضنة له منذ عهد اليونان، وإلى القرن الثامن عشرة تقريبا باستقلال العلوم عن الفلسفة، وبروز الثورة الصناعية، فمنذ تلك الفترة ظهرت تخصصات جديدة كان آخرها تخصصات العلوم الإنسانية كعلم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وغيرها، وبرزت النزعة التخصصية على نحو أكثر حدة، إذ أصبح لكل علم موضوعاته ومناهجه وأجهزته الاصطلاحية والمفاهيمية الخاصة التي تختلف كثيرا أو قليلا عن التخصصات الأخرى، وكل هذه التخصصات، حتى تلك المرتبطة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية، سعت إلى تبني المنهج العلمي الذي يتسم بالطابع التجزيئي والاختزالي للظاهرة المدروسة، يقول أحد الباحثين في هذا السياق منبها على الخطر الذي جنته البشرية بفعل الانغلاق على التخصص وانتهاج مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية نهج العلوم التجريبية قائلا: «إن تجزيء العقل إنجر عنه التخصص بمقدرا تقسيم خريطة الإنسان إلى ميادين وأقاليم، إن الأمر ممكن على صعيد العلوم التجريبية... لكن عندما استعارت العلوم الفكرية والإنسانية هذه التجزئة غير المتناهية بإنشاء أرخبيل من المجالات والمساحات، فإن الإنسان اختفى في هذا التقسيم للأقاليم الحيوية والنفسية والإدراكية، عندما حلَّ الرقم والحساب والإحصاء محل الإنسان»²، ويضيف قائلا: «أصبح الإنسان بعد ميلاد العلوم الإنسانية مجرد موضوع أي أن وجوده افتراضي ومجازي، وليس وجودا حقيقيا»³.

لنضرب مثلا حول التخصصات التي يتزايد عددها يوما بعد يوم في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية، حيث من الملاحظ أن كثيرا من الباحثين يكتفون بالاشتغال

البحثي ضمن دائرة تخصصاتهم الضيقة فقط، من دون الرغبة في الاستعانة بتخصصات أخرى، مع أن كثيرا من الإشكاليات في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية تتميز بطابعها المركب والمعقد، لذلك فإن معالجة مثل هذه الإشكاليات من منظور واحد وباعتماد منهج واحد قد لا يؤدي في النهاية بالباحث إلى معالجة علمية مثمرة، بينما إذا حاول الباحث رؤية إشكاليته من منظورات مختلفة تأخذ بعين الاعتبار الطابع المعقد والمتشابك لهذه الإشكالية فإنه سيكون أمام فرصة جيدة لتحقيق نتائج معرفية لها اعتبارها العلمي وذات مصداقية، إن هذا التمزق المعرفي والتخلف النسبي الذي تشهده العلوم الإنسانية والاجتماعية اليوم ما هو إلا انعكاس للرؤية التجزئية والمتحيزة للمعرفة الإنسانية والاجتماعية، لذلك من المهام الأساسية التي يتعين على الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية بغض النظر عن تخصصه الدقيق أن يقوم بها هو نقد هذه الرؤية غير العلمية في الأساس، ومحاولة تجاوز هذا الموقف القطائي إلى موقف أكثر اعتدالا يقوم على الانفتاح والتواصل بين العلوم.

ج - إن من صور التكامل المعرفي، استفادة الأجيال اللاحقة مما تركته الأجيال السابقة من علوم ومعارف، فتطور شعب من الشعوب لا يمكن أن يكون من فراغ، بل إنه ينبغي على إرث معرفي وحضاري للأجيال السابقة، والاستفادة مكن مختلف الخبرات والعلوم والمعارف، ثم إن استقراء التاريخ يؤكد على أن نهضة الشعوب غالبا ما تستند إلى التكامل بين مختلف الحضارات، عبر قنوات عدة مثل ترجمة العلوم والمعارف كما حدث في تاريخ الحضارة العربية والإسلامية في العهد العباسي، ومثلما حدث أيضا مع النهضة الأوروبية لاحقا، التي استندت إلى الإرث العربي والإسلامي ومختلف العلوم والمعارف التي خلفها المسلمون، ومن صور التكامل أيضا تلك التي نجدها في بعض المشاريع المعاصرة مثل مشروع مانهاتن، مشروع الصعود إلى القمر، مشروع الجينوم البشري وغيرها من المشاريع، فكلها استندت إلى التكامل بين مختلف التخصصات والمهارات والخبرات المعرفية من مختلف العلوم، التقنية والعلمية والإنسانية.

د - لقد أصبحت الدعوة إلى التكامل المعرفي اليوم مبررة أكثر من أي وقت مضى استجابة للمشكلات الراهنة التي تتزايد حدتها يوما بعد يوما في ظل ما نعيشه من انفجار معرفي وثورة في المعلومات، ولعل أبرز هذه الإشكاليات ما يتعلق بقضايا البيوتكنولوجي والبيئة والمناخ والذكاء الاصطناعي والاقتصاد وغيرها من التحديات التي تواجهها البشرية اليوم، وهي إشكاليات تقتضي ضرورة التكامل المعرفي، وتستدعي تظافر جهود عدّة تخصصات من أجل الوقوف عليها ومحاولة تقديم حلول لها.

ففي المجال الاقتصادي مثلاً ثمة حاجة قوية لدمج مختلف التخصصات بعضها مع بعض من أجل الارتقاء بالجانب الاقتصادي ومن ثمّ الارتقاء بجودة الحياة الإنسانية، ذلك أن سوق العمل اليوم يتكئ على رؤى اقتصادية ذات طابع تكاملي ومركب، لم يعد ثمة ما يمكن تسميته بالاقتصاد الأحادي، بل نحن نعيش التركيب والتعقيد والتشابك في كثير من مناحي الحياة، بما فيها الاقتصاد، لذلك تنشأ الحاجة إلى تكوين كوادر فنية منفتحة على كافة العلوم والمعارف والتخصصات، والأمر نفسه ينطبق على المجال الطبي والرعاية الصحية مثلاً، فمع تعقيدات الحياة المعاصرة وتأثيرها على المجال الطبي وظهور أمراض جديدة يصبح من المهم تفعيل التكامل المعرفي على هذا المستوى واستثمار التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي ومختلف فروع المعرفة لقهر الأمراض الجديدة.

5. ماهية ودلالات التكامل المعرفي:

من الملاحظ أن التكامل المعرفي ليس مفهوما معزولاً ضمن مجال معرفي بعينه، فلو كان الأمر كذلك لربما كان من اليسير الإحاطة بماهية هذا المفهوم إحاطة علمية دقيقة، لكن واقع هذا المفهوم مختلف، إذ يمكن أن نجد لمصطلح التكامل حضوراً في مختلف فروع المعرفة، وفي عديد التخصصات، وفي كل فرع من هذه الفروع يأخذ معنى مختلفاً عن المعاني التي يمكن أن نجدها في الفروع الأخرى، من هذه الزاوية يصبح التكامل المعرفي مفهوماً إشكالياً بالأساس، وهذه إحدى أهم الخصائص المرتبطة بهذا المفهوم، إنه مفهوم يستعصي على الضبط والتحديد.

ورغم أن مفهوم التكامل يمكن أن يكون أكثر ضبطاً وتحديداً عندما يتعلق الأمر بتخصصات العلوم الطبيعية والتقنية ومجال الرياضيات على سبيل المثال، غير أنه أكثر اضطراباً عندما يتم تناوله في مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية، وفي مجال الابدستيمولوجيا والفلسفة على وجه الخصوص، من وجهة نظر تحليلية، إن أول خطوة في سلم البحث عن ماهية التكامل المعرفي تستدعي ضرورة تحديد مجال الاختصاص الذي ينتمي إليه هذا المفهوم، هل هو المفهوم الذي نعثر عليه في مجال الرياضيات والفيزياء مثلاً؟ أم هو المفهوم الذي نعثر عليه في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، وفي مجال فلسفة العلوم؟ إن طرح هذه الأسئلة مهم جداً قبل القفز إلى استنتاجات متسريعة أو غير دقيقة بشأن تحديد ماهية التكامل المعرفي، لذلك لا بد، أولاً، من تعيين الغرض من تناول مسألة التكامل المعرفي، وتحديد منهجية هذا التناول ثانياً.

1.5 دلالات التكامل:

من الملاحظ أن التكامل المعرفي مفهوم مركب من لفظين كما هو واضح، اللفظ الأول هو "تكامل"، وهو مفهوم يشيع استخدامه في مجالات متعددة كما أشرنا، بحيث يمكن أن نعثر عليه في عدة تخصصات، فهو مفهوم رياضي، ومفهوم اجتماعي، ومفهوم اقتصادي، ومفهوم فلسفي، ومفهوم في علم الأحياء... إلخ، مضافاً إلى هذا اللفظ مجال التخصص، فيقال: "التكامل الاقتصادي"، نسبة إلى مجال الاقتصاد، ويقال "التكامل الرياضي" نسبة إلى الرياضيات، ونسبة أيضاً إلى علوم الرياضة البدنية، ويقال "التكامل التربوي والتعليمي" نسبة إلى تكامل المناهج التربوية والتعليمية، وهكذا، وفي مجال الرياضيات على سبيل المثال نجد ما يسمى بحساب التكامل "Calcul intégral" الذي يعني «عملية قوامها تعيين مقدار ما من خلال كميات لا متناهية في الصغر، يزداد عددها إلى ما لا نهاية»⁴، وبعبارة أخرى فإن التكامل «قسم من الرياضيات العالية، وهو يبحث في تكامل التوابع، أي في تحديد توابع جديدة تقبل أن تكون التوابع الأولى مشتقة منها»⁵.

والتكامل بالمعنى الاجتماعي يطلق على عملية الاندماج والوحدة التي يمكن أن تقوم بين أعضاء جماعة معينة، عبر التناغم الذي يحصل بين أفرادها سواء على المستوى الثقافي والروحي أو على مستوى الوظائف التي يؤديها كل فرد، ويكون هذا التكامل أولا على مستوى المؤسسات الاجتماعية الصغيرة مثل الأسرة، والمدرسة، والمؤسسة الصناعية أو الزراعية، أو المؤسسة الروحية والدينية، إلى غير ذلك من مؤسسات المجتمع، لتشكل هذه المؤسسات الصغيرة تكاملا فيما بينها مع مؤسسة المجتمع بصفة عامة، من هنا فإن التكامل الاجتماعي بالمعنى الأعم «يجري فهمه وتصوره بمثابة تكييف الأجزاء مع الكل، باعتبار الأجزاء أعضاء أو مجموعات مجهرية، وبضعة الكل هو المجموعة أو المجتمع الإجمالي»⁶، أما بالمعنى الخاص فالتكامل الاجتماعي يعني: «الدرجة التي تتوافق فيها السلوكات الفردية والجماعات الجزئية على ما تنتظره الجماعة، ويتجسد التكامل في شكل معايير وعادات وتيارات رأي سائدة (نماذج اجتماعية - ثقافية للسلوك)»⁷.

وللتكامل ارتباط وثيق بالمجال الاقتصادي أيضا، حيث نعر هناك على ما يسمى بالتكامل الاقتصادي Economic Integration الذي أصبح يتم تداوله بشكل مكثف خصوصا في الحقبة الراهنة، ومن بين ما يعنيه التكامل الاقتصادي أن تتضافر جهود عدة وحدات إنتاجية لتشكل سوقا واقتصادا موحدا يعبر عن توجه اقتصادي قومي، ويتم الحديث من قبل منظرين اقتصاديين من قبيل "فرانسوا بيرو" François Bayrou (ولد 1951) عن التكامل الاقتصادي «للدلالة على تضامن متزايد وتبعية متبادلة (ترابط عضوي متبادل) بل وتوحيد لاقتصاديات عدة أمم، بحيث يتم التوصل، ليس فقط إلى تشكيل سياسة اقتصادية مشتركة للمجموعة الجديدة، بل أيضا إلى تكوين اقتصاد إجمالي مشترك»⁸.

من جهة أخرى تأخذ عملية التكامل الاقتصادي شكلين اثنين عادة، إذ «هناك تكامل عمودي حين تكون جميع عمليات الإنتاج، من استخراج المادة الأولية حتى المنتج الجاهز، مرتبطة بمؤسسة واحدة، ويجري الحديث عن تكامل أفقي حين تكون مؤسسات

قائمة على مرحلة الصنع نفسها، مجموعة في وحدة اقتصادية واحدة»⁹، الأول يمكن وصفه بالتكامل الذاتي الذي يعتمد على إمكانياته الخاصة دون الانفتاح أو الاستفادة من إمكانيات من خارجه، والثاني تكامل أوسع يفتح بشكل أفقي على كلّ ما من شأنه أن يضيف ويدعم إنتاجياته الخاصة.

أما التكامل بالمعنى الفلسفي فهو يشير إلى نظرة فلسفية إلى الإنسان تأخذ بعين الاعتبار وحدته ككل، بعيدا عن جدلية الثنوية الشهيرة، مادة - روح، التي يعرف بها، فمن المعلوم أن الفكر الفلسفي قام في كثير من محاطاته التاريخية على المقابلة الجدلية بين الأضداد، بين الروح والمادة، المثال والواقع، الفيزيقا والميتافيزيقا، الجوهر والعرض... في هذا السياق سيكون التكامل بمعناه الفلسفي مجاوزة لكل هذه الجدليات الفلسفية، فالفلسفة التكاملية تنظر إلى الإنسان كوحدة غير مجزأة، ثم إن مصطلح الكلّي في الفلسفة كان ولا يزال أحد المبادئ الأساسية للتفكير الفلسفي منذ عهد اليونان وإلى اليوم، فمن منظور فلسفي لا يمكن حيازة معرفة صحيحة من دون إدراك كلي وشامل، وهو المبدأ الذي عبر عنه أرسطو بقولته الشهيرة: "لا علم إلا بالكلّيات".

من جهة أخرى فإن من معاني التكامل حسب المنظور الفلسفي سيكون مجاوزة للاجتهادات المبعثرة التي تدعي حيازتها للمعرفة، وإذا ما أردنا إلقاء نظرة عن مسار المعرفة النظرية من عهد اليونان وإلى اليوم، وكيف أسست لمعنى التكامل المعرفي، سنجد أن هذه المعرفة انطلقت في البداية من الجدل بين الفلسفة كونها محبة للحكمة لا حيازة لها، والسفسطة التي كانت تدعي امتلاك المعرفة، ثم استحوّلت تلك المعرفة النظرية إلى جدل بين الاسمية والواقعية، خصوصا في سياق الفلسفة الإسلامية التي فصلت الاسمية بين التصور والواقع، لتجعل من العلم مجرد اجتهادات في فهم الحقيقة دون احتكار أو تقديس لها، وانتهت أخيرا إلى الجدل بين المثالية والتجريبية النافية للقبليات الفكرية، في طور المعرفة الحديثة¹⁰.

وهذه النظرة التكاملية بالمعنى الفلسفي عمل على تأكيدها علماء الفيزيولوجيا Physiology (علم وظائف الأعضاء) وعلماء الأحياء Biologists الذين ساهموا في توضيح عملية تكامل الأعضاء في الكائن الحي، ومن هذا المنظور يكون التكامل أحد أهم الاصطلاحات العلمية والآليات المنهجية التي يتم تداولها في علوم الأحياء، وهو يعني بصفة عامة ترابط أجزاء الكائن الحي والتضامن العضوي الذي ينشأ عن هذا الترابط، ليشكل ذلك وحدة الكائن الحي وهويته¹¹، ولا يقتصر الأمر على التكامل بين الأعضاء فقط، بل إن ثمة نقاط التقاء أساسية بين هذا الجانب العضوي الأحيائي، وبين تكامل الجانب النفسي والاجتماعي للشخصية الإنسانية، ومما لا شك فيه أن «هناك أوجه شبه بين نمو الكائن الحي ونمو النفس الإنسانية أو الجماعة، فيجب الاستفادة بما وصلت إليه علوم الأحياء من حقائق وقوانين للاستعانة بها على سبيل المماثلة لكشف القوانين الخاصة بالوقائع النفسية والاجتماعية»¹².

2.5 دلالات المعرفة:

أما اللفظ الثاني للكلمة المركبة "التكامل المعرفي" فهو لفظ "معرفي"، نسبة إلى المعرفة، والمعرفة كما يبدو ليست مفهوما أكثر تحديدا وانضباطا من مفهوم التكامل، بل هي أيضا مفهوم إشكالي، رغم أن كل مجالات العلوم بشقيها الطبيعي والإنساني تتأسس على هذا المعنى، معنى المعرفة، وهي الغاية الأساسية لمختلف العلوم والتخصصات كما هي المنطلق والمبتدأ، ولها الكثير من المعاني، عند القدماء وعند المحدثين، ولعل أبرز هذه المعاني أن المعرفة هي إدراك الشيء عن طريق الحواس أو غيرها الطرق¹³، وجملة القول أن «المعرفة تطلق على معنيين أساسيين، الأول هو الفعل العقلي الذي يدرك الظواهر ذات الصفة الموضوعية، والثاني إطلاقها على نتيجة ذلك الفعل أي على حصول صورة الشيء في الذهن»¹⁴.

من جهة أخرى يبدو أن إدراك الدلالات الاصطلاحية المختلفة لمفهوم المعرفة يمكن أن يستغرق تاريخ العلم، وتاريخ فلسفة العلوم برمّتها، وفي هذا السياق لا بد أن نأخذ

بعين الاعتبار أن المعرفة الإنسانية ليست نمطا واحدا، لا على مستوى مصادر هذه المعرفة ولا على مستوى النتائج المتوصل إليها، فالجهود التي بذلها العلماء والفلاسفة على اختلاف أزمانهم وثقافتهم لحيازة فهم حول ماهية المعرفة ودلالاتها، كانت دائما تنطلق من مبادئ مختلف بعضها عن بعض، فمنهم من أسس فهمه للمعرفة على أساس ديني، ومنهم أسس فهمه على أساس علمي تجريبي، ومنهم من أسس فهمه على أساس أدبي وفني، وهكذا تختلف المنطلقات ومعها يختلف الفهم وتختلف النتائج والغايات، وهذه الاختلافات هي التي أسست لقيام مختلف المدارس المعرفية والتيارات الفكرية، ولكل منها فهم خاص لمعاني ودلالات المعرفة.

من زاوية أخرى ترتبط دلالات المعرفة بشبكة من المفاهيم ذات الصلة، ولعل أهمها مفهوم العلم، وهنا سنجد أن ثمة اختلافا في تعيين مفهوم المعرفة، ليس على المستوى الاصطلاحي فقط، ولكن أيضا على المستوى اللفظي، ومثلما أشرنا فإن المعرفة تتداخل مع العلم، على الرغم من أن بعضهم يعتقد أن المعرفة ليست مفهوما معقدا وأنها والعلم مترادفان، أي أنهما مسميان أو مصطلحان لشيء واحد، فالمعرفة هي العلم بعينه، وفي هذا السياق كتب القاضي عبد الجبار المعتزلي يقول: «المعرفة والدراية والعلم نظائر»¹⁵.

لكن من جهة أخرى ثمة من يفصل بين المعرفة والعلم ويرى أنهما معنيان مختلفان، إذ إن المعرفة إدراك للجزئي، بينما العلم إدراك للكل، وتستعمل المعرفة في باب المنطق في التصورات، بينما يستعمل العلم في التصديقات، ولذلك يقال: عرفت الله، ولا يقال: علمته، لأن من شرط العلم أن يكون له إحاطة تامة بأحوال المعلوم، لذلك يوصف الله بالعلم ولا يوصف بالمعرفة، كون المعرفة أقل من العلم، ثم إن للعلم شروطا لا تتوافر في كل معرفة، فكل علم معرفة، وليس كل معرفة علم¹⁶.

3.5 الأسرة المفاهيمية للتكامل المعرفي:

من الملاحظ أن التكامل المعرفي يتم استعماله في كثير من المرات في سياقات مختلفة ووفق دلالات متعددة، إذ يستعمل التكامل المعرفي كمترادف لمصطلحات معينة، سواء بوعي أو بغير وعي، هذه المصطلحات يمكن أن نطلق عليها صفة الأسرة المفاهيمية للتكامل المعرفي، لذلك يبدو أنه من المهم إلقاء الضوء على هذه الأسرة المفاهيمية المتداخلة مع مصطلح التكامل المعرفي، ومحاولة تمييز كل هذه الاصطلاحات عن معنى التكامل المعرفي، على اعتبار أن البحث العلمي الحصيف يستدعي من الباحث الجاد ضرورة تحديد وضبط الاصطلاحات والمفاهيم ضمن مجال دراسته، وكوننا نحاول الوقوف على ماهية ودلالات التكامل المعرفي نرى أنه من الضروري القيام بهذه المهمة.

يتم استعمال التكامل المعرفي في بعض الأحيان للإشارة إلى الموسوعية، أي إلى سعة المعارف لدى شخص ما والإلمام بها إلماما يجعل الناس تشير إليه بكونه شخصا مثقفا، على الرغم من أن السعة في المعارف، سواء كانت تلك المعارف تخصصية أو عامة، لا تعني بالضرورة أن هذه المعارف متكاملة، على اعتبار أن هذا الشخص الموسوعي لربما كام ملما بمعارف متعددة ومختلفة إلى حد التناقض، فكيف يكون التكامل صفة لهذه الموسوعية؟، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن من الشروط الأساسية لمعنى التكامل المعرفي أن يكون بين هذه المعارف تناغما وانسجاما لا تناقرا واختلافا.

والحقيقة أن صفة الموسوعية المعرفية كانت، وما تزال، صفة للكثير من أعلام الثقافة والفكر عبر تاريخ البشرية الممتد، في الشرق والغرب، وبالأخص صفة للفلاسفة منذ عهد أفلاطون وأرسطو إلى يومنا هذا مع عديد من الفلاسفة والمفكرين أمثال "إدغار موران Edgar Morin" وغيره، هؤلاء الموسوعيين أبدعوا في أكثر من علم واحد، «وربما كانت ظاهر التخصص في علم واحد والتفرغ له ظاهرة حديثة في التاريخ الإنساني، بسبب التوسع الكبير الذي طرأ على المعرفة البشرية، حتى أصبح من غير الميسور على العالم

الواحد أن يتخصص في أكثر من علم، بل إن العلم الواحد قد تجزأ إلى علوم فرعية لا يكاد العالم يتقن واحدا من هذه الأجزاء»¹⁷.

بينما سنجد أن صفة الموسوعية كانت الصفة الغالبة لتاريخ العلوم والمعارف البشرية، وهي صفة ترتبط بشكل أو بآخر بمعنى التكامل المعرفي، وقد صنفت الموسوعة العالمية، الصادرة بالانجليزية 1968 العلماء المبتكرين إلى ثلاثة أصناف: الأول: العالم الرائد أو الطلائعي، والثاني: العالم الباني أو المؤسس، والثالث: العالم المتلاقح أو عالم التداخل أو الموسوعي، أما العالم الرائد فهو الذي يعمل على توسيع آفاق البحث وتمديد حدود غير معروفة من قبل، كما يعمل على تقريب الحدود بين العلوم... أما العالم الباني أو المؤسس فهو الذي يقوم بإثراء الميدان المكتشف من قبل العالم الرائد أو الطلائعي، ويعمل على بناء نظريات وصياغة مفاهيم أو مناهج... وأما العالم المتلاقح أو المتداخل، أو ما كان يعرف بـ "الموسوعيين" فهم وحدهم يمثلون العلماء المبتكرون البارزين.. كونهم قادرين على الجمع بين تخصصات معرفية مختلفة¹⁸.

الملاحظ حول هذه التصنيفات الثلاث أن الموسوعية والتكامل حاضران بشكل صريح، وأن الابتكار والإبداع العلمي والمعرفي على مستوى النظريات والمناهج مرتبطان بانفتاح العلماء على مجالات معرفية من خارج تخصصاتهم الأصلية، فالتكامل المعرفي يقتضي الموسوعية، كما أن الموسوعية من المرجح أن تفضي إلى التكامل، وقد «امتأل التاريخ الإنساني بالعلماء المتلاقحين، أو علماء التداخل، وكانوا يُدعون في كتب تصنيف العلوم والعلماء بالموسوعيين منذ أرسطو إلى الآن، مما يزيد الطابع التداخلي والتكاملي للمعرفة الإنسانية ويؤكد»¹⁹.

وأحيانا يستخدم التكامل المعرفي للدلالة على وحدة المعرفة، وهو موضوع كتب فيه العديد من المفكرين والفلاسفة وغيرهم من العلماء، ذلك أن وحدة المعرفة موضوع يقع ضمن دائرة واسعة من التخصصات ومجالات البحث «وقد كتب فيه علماء طبيعيون واجتماعيون وفلاسفة وعلماء دين، ولكن هذه الكتابات تختلف في معالجتها لموضوع

وحدة المعرفة، وأحيانا لا تميّز بين مفهوم "الوحدة" ومفهوم "التكامل"، ليكون التكامل المعرفي مرادفا لوحدة المعرفة القائمة على تناغم وانسجام مختلف العلوم والمعارف من جهة، وتناغم وانسجام ثنائيات معرفية من قبيل، إنسجام نظام الكون ونظام العقل، أو انسجام العقل والوحي، أو انسجام العلم والعمل، أو الأصالة والمعاصرة، إلى غير ذلك من الثنائيات.

ومن الجدير بالملاحظة أن استخدام التكامل المعرفي بمعنى وحدة المعرفة يأتي لمجاوزة تلك الثنائيات "الضدية" من جهة، وتجاوزا لسؤال جدلي طالما طُرح في سياق فلسفة العلوم على وجه الخصوص، وهو سؤالٌ حول ما إذا كان العلم علما واحدا، أي مفردا، أم أنه علوم، بصيغة الجمع؟ غير اعتماد فكرة ومبدأ التكامل المعرفي والإيمان بها سيُفضي بهذا النقاش الجدلي إلى نظرة جديدة تقوم على الوحدة والتآلف، بدل الكثرة والاختلاف، لذلك فإنه «بالرغم من كثرة العلم وتعدد مناهجه، فإنه يعتبر أمرا واحدا بالنسبة للذات التي تدركه، ووحدة العلم أو تعدده يجيئان من نظرتنا نحن إلى العلم ومن الجانب الذي نأخذه منه بعين الاعتبار»²⁰.

من جهة أخرى، سنجد أن ثمة من الباحثين من يحاول التمييز بين معنى التكامل المعرفي ووحدة المعرفة، على اعتبار أن لفظ التكامل لربما يكون أكثر ثِقْلاً من الناحية الدلالية، في الوقت الذي يكون فيه مصطلح الوحدة أقل تكثيفا وأكثر عمومية، وتبرير هذا التمايز بين التكامل والوحدة يتأسس على اعتبار آخر، وهو أن «مصطلح التكامل أكثر وضوحا في دلالاته من مصطلح الوحدة وبخاصة إذا كان التكامل يعني أن علما معيناً يحتاج إلى أن يتكامل مع علم آخر أو أكثر، من أجل تطويره وتقديمه، أو يعني حاجة الإنسان في فهمه لعلم معين إلى علوم أخرى تعين في تحقيق هذا الفهم»²¹.

كذلك يستخدم التكامل المعرفي للدلالة على التداخل بين العلوم والمعارف، ويفضل بعضهم استخدام اصطلاح التداخل بدل التكامل على اعتبار أن التداخل مفهومٌ أكثر شمولاً واتساعاً، ثم إنه إذا كان ثمة معرفة متكاملة فهذا لا يعني بالضرورة أنها معرفة

شاملة، وإضافة إلى ذلك يبدو أن التداخل أكثر ديناميكية وحيوية من التكامل، وهو يفضي إلى ابتكار وابتداع النظريات والمناهج، لكن التكامل من وجهة النظر هذه ليست له الكفاءة والدلالة نفسها التي يمكن أن يُفضي إليها معنى التداخل، يقول أحد الباحثين في هذا الشأن: «وقد رجحنا لفظ "التداخل" على "التكامل" لشمولية مصطلح التداخل واتساعه أكثر من التكامل، ولأن التداخل ليس بالضرورة تكاملاً، ثم إن التكامل لا يحقق بالضرورة المطلب العلمي الأساسي، وهو الإبداع المكثف والتناول الشامل للظواهر المعرفية المعقدة، كما أن لفظ "التداخل" يفتح فرصاً للتواصل بين العلوم دون تكامل بينها جزئياً أو كلياً»²².

وإضافة إلى الموسوعية ووحدة المعرفة والتداخل سنجد أن التكامل المعرفي مرتبط أيضاً بالعديد من المصطلحات المعاصرة التي يتم تداولها في حقول معرفية مختلفة²³، وعادة ما يُستخدم التكامل المعرفي قياساً إلى هذه المصطلحات، استخداماً من جهة الترادف والدلالة المتماثلة، على أن ثمة من الباحثين من يستخدمها مع الإشارة إلى التمايز النسبي بينها وبين التكامل المعرفي، ولعل من بين أبرز هذه الاصطلاحات نجد: "تشابك المعارف" Intertwining knowledge و"تعدد التخصصات" Interdisciplinarity و"العبر منهجية" Transmethodology... ورغم أنه يجب الاحتياط عندما تناول كل هذه المصطلحات تحرياً للدقة العلمية، بيد أنه من وجهة نظر بعض الباحثين، كل هذه المصطلحات «تعد رافداً غنياً لمصطلح "التداخل" وتجلياً جزئياً من تجلياته»²⁴.

ومهما يكن الأمر فإن محاولة التمييز بين تلك المصطلحات على اختلافها وبين التكامل المعرفي لا يعني بالضرورة وجود اختلافات جذرية في تصور معنى التكامل المعرفي، بل إن طبيعة هذا الاختلاف يعود بالأساس إلى طبيعة الرؤية إلى المعرفة بصفة عامة، وهو اختلاف يعبر عن تعدد زوايا النظر إلى طبيعة المعرفة والعلاقة القائمة بين مختلف العلوم، إنه اختلاف يعبر عن الثراء ولا يجب النظر إليه بوصفه عائقاً في توظيف واستثمار

معنى التكامل المعرفي ليكون نظرية متكاملة الأركان من جهة، وإجراءً تطبيقيًا في مختلف مجالات الحياة المعاصرة من جهة أخرى.

4.5 مجمل القول في دلالة التكامل المعرفي:

صار من الجلي الآن، أن مفهوم التكامل المعرفي ليس من المفاهيم التي يمكن ضبط دلالتها بسهولة، بل هو مفهوم ذو طابع إشكالي للأسباب التي تم ذكرناها ولا حاجة هنا لإعادة ذكرها، ولعل اختلاف دلالات مفهوم التكامل المعرفي بين الباحثين يعبر في حقيقته عن إحدى السمات الهامة للتكامل المعرفي وهي سمة الاتساع والشمول، لذلك يبدو أنه من الطبيعي أن يكون ثمة اختلافات بين الباحثين في تصورهم لبعض جزئيات هذا المفهوم، ورغم اختلاف الدلالات إلا أن ثمة الكثير من أوجه الاتفاق في تصور هذا المفهوم بين الباحثين، ومعظم التعريفات تتفق في كون التكامل المعرفي يحيل إلى وجود «تبادل أو حوار بين المعارف والعلوم، إن على مستوى التحليل أو المنهج أو المفاهيم أو النظريات بين علمين فأكثر، مما يحقق الثراء والإبداع، عبر المقاربة الشمولية والمتكاملة للظواهر المعرفية المتداخلة العناصر والمكونات»²⁵.

وهذا التبادل أو الحوار بين العلوم والمعارف ينبغي أن يكون إيجابيًا ومثمرًا، إذ إن التكامل المعرفي يجب ألا يعني تطفل العلوم بعضها على بعض، أو تدخل بعضها في شؤون بعض، لأن هذا من شأنه أن يشوش على كل تخصص، ولأنه ليس ثمة علم داخل علم، فلكل علم موضوع محدد ومنهج معين، وليس من المناسب أن تتداخل المواضيع والمناهج مع بعضها، إنما القصد من التكامل المعرفي هو إحداث قيمة مضافة وإيجابية بتضافر جهود علمين أو أكثر، ويمكن أن نتلمح هذا النوع من التضافر في تجارب ومحطات مختلفة، ومن ذلك أنه في مطلع القرن العشرين برزت حاجة الفيزيائيين إلى الرياضيات، وحاجة البيولوجيين إلى الكيمياء، فظهرت العلوم البينية (المقارنة) Interscience التي تؤكد أن التطور والتقدم في علم من العلوم يعتمد على علم آخر أو علوم أخرى²⁶.

إن التكامل المعرفي كما يبدو ليس مذهبا أو إيديولوجيا بقدر ما هو رؤيةٌ منهجية، إنه «قضية فكرية منهجية، من حيث إنها ترتبط بالنشاط الفكري والممارسة البحثية وطرق التعامل مع الأفكار»²⁷، وهو يشير عادة إلى دمج وتوحيد المعرفة بين تخصصين معرفيين أو أكثر، وذلك من أجل معالجة إشكالية معينة، في بعدها النظري والتطبيقي، تكون موضوعا مشتركا لهذه التخصصات، بحيث يمكننا ذلك الدمج من تكوين فهم شامل ومتكامل للإشكالية المطروحة، أخذا بعين الاعتبار طابعها المتشابك والمركب، وهو ما يساعد في حلها.

وللتكامل المعرفي بعدين أساسيين، بعد نظري وفيه يكون التكامل المعرفي قضية معرفية ومنهجية بالأساس هدفها إنتاج المعرفة والتأكيد على الصلات الظاهرة والخفية القائمة بين العلوم والمعارف، وبعد عملي تطبيقي يتجلى عبر تحويل المعرفة النظرية إلى تطبيقات على أرض الواقع، وقد عبر عنه أحد الباحثين بقوله: «ثمة بعدين لعملية التكامل المعرفي، بعدٌ إنتاجي وبعدٌ استهلاكي، فالتكامل في بعده الإنتاجي صورة من صور الإبداع الفكري... أما البعد الاستهلاكي من عملية التكامل المعرفي فيتعلق بتوظيف الأبنية الفكرية التي يقوم عليها التكامل في فهم الظواهر أو القضايا موضع الدراسة، وتمييز العناصر المميزة للمعرفة في إطارها التكاملي، وتسهيل نقل هذه المعرفة إلى الآخرين»²⁸.

6. المبادئ الفلسفية العامة للتكامل المعرفي:

مثلما أشرنا سابقا، فإن التكامل المعرفي أصبح اليوم مفهوما متعدد الدلالات والأبعاد، إذ يرتبط بأكثر من تخصص وأكثر من مجال معرفي، لذلك تصبح نظرتنا إلى هذا المفهوم متعلقة أساساً بزوايا النظر، أي بالمجال التخصصي والمعرفي الذي نتموقع ضمنه، فما يفهمه الباحث في مجال الاقتصاد والتجارة من التكامل، ليس هو المعنى الذي يفهمه باحث آخر في مجال الفيزياء أو الرياضيات أو الفلسفة، وهكذا مع سائر التخصصات الأخرى، وهذا المعنى ينطبق أيضا على مفهومنا لمبادئ التكامل المعرفي، إذ إن هذه المبادئ تختلف باختلاف مجال التخصص، هذه الملاحظة من المهم الإشارة إليها قبل

أن نحدد تالياً رؤيتنا لمبادئ التكامل المعرفي من زاوية فلسفية بالأساس، ولعل أبرز هذه المبادئ نلخصها فيما يلي:

1.6 تناغم وانتظام الكون:

عندما ننظر إلى الوجود نراه، للوهلة الأولى، وجوداً مجزأً متعدد التظاهرات، لكن كل هذه الأجزاء والمظاهر تعود إلى الكل والوحدة في النهاية، فمثلاً أن الإنسان يتكون من أجزاء تبدو مختلفة من حيث الطبيعة والوظيفة، كونه يتألف من جزء مادي، وجزء روحي، وكتلة من المشاعر والأفكار، إلا أن الإنسان في النهاية، يمثل حقيقة واحدة ووحدة متماسكة ولا يمكن النظر إليه إلا من هذه الزاوية، زاوية الوحدة، وكل إنسان إنما يرى نفسه وذاته نفساً وذاتاً واحدة على الدوام، صحيح أن كل عضو من أعضائه يؤدي وظيفة مختلفة، إلا أن كل الأعضاء تتكامل فيما بينهما، ويمتد فيها الجزء إلى الكل في وحدة وانسجام.

لقد شكلت وحدة الكون، على مدار التاريخ الفلسفي افتراضاً مسلماً به، وتم التعبير عنه بطرق متعددة، فثمة من ينظر إلى وحدة الكون وانسجامه على أنه تعبير عن "وحدة الوجود"، وثمة من ينظر إليه على أنه تناغم متمظهر في عالمين، عالم حسي وعالم مثالي، أو عالم مادي وعالم روحي... ورغم هذه الاختلافات يظل افتراض وحدة الكون افتراضاً مسلماً به، تماماً كما نسلّم بوحدة الإنسان رغم اختلاف طبيعة مكوناته بين الروحي والمادي، هذه الاختلافات، إذا نظرنا إليها بمنطق التكامل، سنجد أنها ليست اختلافات جوهرية، بل هي اختلافات عرضية، منشؤها اختلافات في الفهم وآليات التفسير وطرائق التعبير، بينما تظل فكرة وحدة الكون فكرة مسلّم بها بين أغلب المذاهب الفلسفية، يقول أحد الباحثين: «فكرة تناغم الكون شكلت، فرضية فلسفية مهمة لدى جل المذاهب، إن لم يكن لدى كلها، وتتمثل هذه الفكرة في اعتبار الكون وحدة من المكونات والعناصر تتماسك فيما بينها وتتواصل، بحيث تتأثر باقي العناصر بكل ما يجري للبعض الآخر، قليلاً أو كثيراً»²⁹.

ومثلما تختلف طرائق التعبير حول مسلمة وحدة الكون وانسجامه فكذلك تختلف النظرة إلى طبيعة هذه الوحدة، وهل هي طبيعة مادية أم روحية، حسية أم عقلية، وقد طرحت فكرة انسجام وتناغم الكون ووحدته منذ البدايات الأولى للتفكير الفلسفي وأخذت طابعا ماديا مع الفلسفة الذرية التي شيد أركانها ديمقريطس Democritus وليوكيبوس، ثم أخذت بعدا رياضيا مع فيثاغورس والفيثاغوريين، الذي نظروا إلى الكون باعتباره نغما موسيقيا وعددا رياضيا، يعبر عن التناغم والانسجام والوحدة، «فالكون في رأي فيثاغورس موسيقى تنسجم أنغامها وتتوافق، ولذلك لا يخرج هذا الكون عن إطار معقولية الوحدة، فهو في شموله وتعددته وحدة قائمة بذاتها، وليست أجزاء الكون الظاهرية غير أنغام الموسيقى التي تتساق في الانسجام، وهكذا يكون الكون نغما»³⁰.

وأحيانا تأخذ فكرة وحدة الكون وانسجامه طابعا صوفيا كما عند جردانو برونو الذي كان يرى أن الله يُفيض على كل جزء من أجزاء الكون من جلاله وجماله، لتنسجم وتتناغم في وحدة واحدة، وينكر أن يكون في الكون شيء بغير روح وحياة وإحساس، «فليست طبيعة العالم في رأي برونو إلا هذا الاتساق المنسجم بين أجزائه، والانسجام هو أخص خصائص الكون، ومن يستطيع أن يدرك هذا الاتساق بين أجزاء الكون، وأن يفهمه على وجهه الصحيح، تلاشت أمام عينيه عيوب الأجزاء التفصيلية في جمال "الكل"، وإن من يشكو من قبح العالم أو نقصه لعاجز أن يسمو بنفسه، بحيث يرى "الكل" في انسجامه واتساقه»³¹.

ومثلما أن مسلمة انسجام الكون وتناغمه، إضافة إلى كونها فكرة فلسفية، فهي أيضا فكرة تتبناها الكثير من الأديان، وفي هذا السياق سنجد أن بعض الباحثين والمفكرين في العالم العربي والإسلامي، أولئك الذين يتبنون الآن ما يسمى بـ "مشروع إسلامية المعرفة"، يجعلون من هذا المبدأ منطلقا لتأسيس فكرة تكامل المعرفة الإسلامية، بمعنى أن التكامل المعرفي من وجهة النظر هذه تجعل لها من "حقيقة" وحدة الكون مبدأ ومبررا أساسياً للسعي نحو تفعيل فكرة التكامل المعرفي، وهذا المبدأ يفضي بدوره إلى

الإيمان بحقيقة وجود قوة مفارقة للطبيعة، تجعل من هذا الوجود وجوداً منسجماً ومتناغماً في أدق تفاصيله.

وتسند هذه الرؤية إلى الفلسفة الإسلامية وإلى التراث الإسلامي في بعده الفلسفي والروحي، إذ نجد في سياق هذه الفلسفة نماذجاً من التفكير على هذه الشاكلة، ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى المتصوفة الإسلاميين وإلى ابن عربي، على سبيل المثال، الذي كان يقول بوحدة الوجود ووحدة الكون رغم ما أثير من جدل في طبيعة هذه الرؤية، هل هي مادية إلحادية؟ أم هي روحية منسجمة مع تعاليم الإسلام؟ فابن عربي كان يرى «أن الوجود بأسره حقيقة واحدة ليس فيها ثنائية ولا تعدد، على الرغم مما يبدو لحواسنا من كثرة في الموجودات في العالم الخارجي وما نقرره بعقولنا من ثنائية الله والعالم: الحق والخلق، ولكن الحق والخلق عنده اسمان أو وجهان لحقيقة واحدة، إذا نظرت إليهما من ناحية وخذتها سميتها حقاً، وإن نظرت إليهما من ناحية تعددها سميتها خلقاً، ولكنهما اسمان لمسمى واحد»³²، ولا تتوقف هذه الرؤية، رؤية إسلامية المعرفة في ارتباطها بـ "نظرية التكامل المعرفي" بالتراث الصوفي الإسلامي وحده، بل أيضاً ترتبط بالإرث الكبير لتراث الفلسفة الإسلامية، بتعدد مدارسها الفلسفية، وتياراتها الكلامية، ومذاهبها الفقهية، فضلاً عن الإيمان بالطبيعة التكاملية لكل العلوم والمعارف المعاصرة سواء في السياق المعرفي الغربي أو الإسلامي.

2.6 وحدة العقل ووحدة آلياته المنهجية:

العقل الإنساني عقل واحد، والأدوات المنهجية التي يعتمد عليها في تعقل وفهم العالم أدوات واحدة، رغم ما يبدو من اختلافات بين العقول ومناهج التفكير بحسب البيئة والجغرافيا والإرث التاريخي والحضاري، ثم من جهة أن ثمة من العقول من نعى ونشأ على نمط معين من المعارف، ونمط معين من التفكير والإيديولوجيا، لذلك نجد صفاتاً معينة تُضاف عادة إلى كلمة "عقل" فيقال عقلٌ ياباني وعقلٌ أوروبي وعقلٌ شرقي تميزاً لهذه العقول بعضها عن بعض، من جهة الجغرافيا، وأيضاً من جهة طرائق التفكير، كما أن

ثمة أوصافاً أخرى تضاف إلى العقل كصفة العلمية والفلسفية واللاهوتية، فيقال عقلٌ علمي وعقلٌ فلسفي وعقلٌ لاهوتي، تميّزاً لهذه العقول بعضها عن بعض من جهة طبيعة الرؤية إلى العالم، والحياة، والثقافة، والعلم، والدين وغيرها.

وهكذا تتعدد العقول بتعدد توجهاتها العقدية والإيدلوجية والمعرفية، ونتيجة لما تحمله من ميراث ثقافي ورمزي، ومنجزات حضارية، كلٌ ذلك سيكون له الأثر الكبير في تشكيل المعرفة واختلاف أدواتها، للفرد والجماعة على حد سواء، على اعتبار أن «البناء المعرفي يكون متأثراً بالتفاعلات الاجتماعية عبر الزمن ماضياً وحاضراً وتطلعاً للمستقبل»³³، لكن على الرغم من ما يبدو من اختلاف على هذا المستوى، في تعدد العقول وتعدد أدوات التفكير من قبيل الاستقراء والاستنباط والتحليل والملاحظة والمقارنة وغيرها من المناهج، إلا أنه بلحاظ آخر، ومن زاوية نظر مختلفة، سنجد أن السمة الأساسية للعقل الإنساني ولأدوات التفكير، هي سمة الوحدة لا سمة الكثرة والاختلاف، وإثبات هذه السمة كانت إحدى المهام المزدوجة التي أنجزتها الفلسفة عبر تاريخها الطويل، محاولة إعطاء تفسير للتنوع والتعدد والاختلاف الذي يبدو متجلياً في الكثير من مظاهر الوجود، من جهة، ومحاولة رد هذه الكثرة إلى جذر واحد، وتوحيد مظاهر الوجود المتعدد في رؤية فلسفية ووجودية متكاملة، من جهة أخرى.

إن آليات عمل العقل خلال النشاط المعرفي يستدعي عدداً من المنهجيات الأساسية مثل، الملاحظة والمقارنة والتمثيل والقياس والاستنباط وغيرها، وهذه الآليات تعبر عن وحدة العقل الذي يستخدمها ويفعلها، رغم عدم تماثل هذه الآليات ظاهرياً، وفي السياق نفسه سنجد أن إنتاج العقل لمعرفة جديدة غالباً ما يكون عن طريق الاستناد إلى معرفة سابقة، فالمعرفة الجديدة غير مبتورة الصلة بينها وبين التجارب المعرفية السابقة، وغير مبتورة الصلة مع جوانب معرفية تبدو للوهلة الأولى مختلفة، فالعقل يميل عادةً إلى الاعتماد على منهجية التأليف والمطابقة والمماثلة بين المعارف في شتى المجالات والتخصصات، لذلك سنجد أن كثيراً من العلماء اليوم «لا يمانعون في الأخذ بمفهوم آخر

لوحدة العلم أكثر تواضعاً، ونعني به توحيد العلوم عن طريق التأليف بين الموضوعات المتشابهة في شتى العلوم، والبحث عن صور الفكر المتماثلة هنا وهناك، وأخيراً عن طريق توثيق الروابط بين مختلف البحوث التكاملية»³⁴.

لنضرب مثالا عن هذا المعنى من مجال الفيزياء، حيث إن الفيزيائي يشتغل وفق رؤية علمية محددة يدرس من خلالها الظواهر المادية في الطبيعة ويبحث عن تفسيرات لها ليخرج في النهاية بقانون أو نظرية تكون صياغتها صياغة رياضية، ومجال الرياضيات كما يبدو يشكل الروح العامة للعلم إذ تستعين به الكثير من التخصصات العلمية، «لقد انتبه جُلّ الفلاسفة إلى أهمية التعبير بالحساب والنسب، لأنه يوجه العقل نحو الانتظام في حصول وترابط الظواهر، فالحساب والنسب والقياس، علميات تحصر العلاقات بين الأشياء، وتقيدتها في معادلات لا تعرف انزلاقاً، بالإضافة إلى أنها تمكن من استنتاج المعارف الجديدة عبر إنجاز عمليات مضبوطة، حيث تتم ترجمة العلاقات بين الوقائع إلى نموذج رياضي، فيكون حل العملية الرياضية حلاً لتلك العلاقات بين الوقائع»³⁵.

ومن جهة أخرى فإن الفيزيائي قبل أن يصل إلى تقرير القانون الجديد لا بد أن يمر عقله بمجموعة من الآليات المنهجية أولاً، وجملة من الخبرات المعرفية، التي لا تتعلق بميدان الفيزياء فقط، ولكن أيضاً بميادين معرفية مختلفة، ثانياً، حتى ما يتعلق منها بالسياسي والاجتماعي والاقتصادي وبالثقافي التي قد تبدو للبعض مجالات بعيدة الصلة بينها وبين الفيزياء، وهذا يعني أن كل عالم وكل فيلسوف وكل منظر روحاني، يستند في تأسيس معارفه الجديدة، أولاً، على مجال تخصصه المعرفي من جهة، وثانياً يستند، سواء بوعي أو بغير وعي على معطيات في مجالات معرفية أخرى من خارج تخصصه، هكذا يشتغل العقل الإنساني، ضمن هذا الفضاء العلائقي بين آلياته المنهجية ومجمل المعطيات المعرفية لديه، وهي معطيات مبنوثة في كثير من المجالات المعرفية.

ويمكن أن نضرب مثالا آخر عن وحدة العقل، بالعودة إلى سياق الفلسفة الإسلامية، وإلى ابن رشد على سبيل المثال، إذ نجد أن الروح العامة التي تنتظم من خلالها فلسفته

هي روح تكاملية بالدرجة الأولى، تكامل المعارف الإسلامية مع معارف الحضارة اليونانية الفلسفية، دون حرج في أن يستفيد المسلمون من الأخذ عن اليونان، ودون اعتبار لـ "وثنية" العقل اليوناني، ذلك أن ابن رشد آمن بوحدة العقل الإنساني قبل كل شيء، وقد تمظهرت هذه الرؤية التكاملية للعلوم في فلسفة ابن رشد بمشروعه الكبير حول تكامل الحكمة والشرعية، من باب أن ما نزل به الوحي لا بد أن يكون منسجما ومتوافقا مع مقتضيات العقل، ويخلص أحد الباحثين في فلسفة ابن رشد إلى القول: «لأننا لخصنا أعلاه فلسفة ابن رشد بمقوله واحدة هي القول بوحدة العقل أو وحدة النفوس أو وحدة الجنس البشري»³⁶.

3.6 تطابق العقل والكون:

من الملاحظ أن جلَّ الفلاسفة قد أكدوا على أن إمكانية تعقل الكون لا يمكن أن تكون إلا بسبب وجود تناغم مسبق ووحدة تكاملية بين العقل والكون، فالعقل الإنساني كونٌ أصغر في مقابل الكون الأكبر، وهو قسمة مشتركة وعادلة بين جميع البشر، كما يؤكد ديكارت René Descartes، لذلك ثمة علاقة صلة وترابط حميمي، تم التعبير عنها فلسفيا من خلال ثنائيات متعددة من قبيل وحدة الفكر والوجود، وحدة الذات والموضوع، تطابق العقل والواقع وغيرها من الثنائيات التي تعود في نهاية سُلّم البحث إلى التكامل والتطابق والانسجام، لا إلى التنافر والاختلاف.

وإذا ما أردنا أنت نعبر عن هذه الحقيقة بصيغة ما يمكننا أن نقول إن العقل الإنساني لا يمكنه أن يحوز معرفة ما، ما تكن هذه المعرفة مستقاة، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، من الوقائع الفعلية التي تقع في حاق الوجود، بمعنى أن مختلف الأفكار التي في ذهن الإنسان، حول كل شيء في الوجود، من غير الممكن أن تكون مبتورة الصلة مع الواقع، لذلك عادة ما يقال: "إنه لا وجود لشيء في الذهن ما لم يوجد في الحس"، وجهة أخرى لا يمكن أن تكون ثمة حقيقة ما، ما لم تكن هذه الحقيقة مرتبطة بالواقع الفعلي، ومعبرة ودالة عليه، وقد وضع الفلاسفة والمناطق من قديم مبحثا في علم المنطق أسموه

"المناطق في صدق القضايا وكذبها"، وربطوا الصدق والكذب بمطابقة الفكر للواقع، «فكلما قالوا إن الموضوع الكذائي حقيقي أو صادق أو صحيح فهم يقصدون أنه مطابق للواقع، وإذا قالوا أنه مخطئ أو كاذب أو غلط فهم يعنون أنه لا يطابق الواقع»³⁷.

لقد كانت المقولة الشهيرة "تطابق العقل والأشياء" العنوان الأبرز للفلسفة الوسيطية منذ عهد "توما الأكويني" Thomas Aquinas، وقد عمد سبينوزا Baruch Spinoza إلى محاولة فك التناقض الظاهري بين العقل والطبيعة، أو بين الفكر والوجود بناء على ما سماه "الانسجام الأزلي" Eternal harmony، والذي سيأخذ به ليبنتز Gottfried Wilhelm Leibniz في وقت لاحق من أجل تطوير نظريته الشهيرة في المونادات Monadology، أو الذرات الروحية، إن العلاقة الأصلية بين الفكر والوجود أو بين العقل والطبيعة، تكمن في كون أن العقل عادة ما يقوم باستعارة أدوات الطبيعة من أجل صناعة ما هو ثقافي ورمزي، وبشكل خاص أداة الرياضيات بناء على أن الطبيعة تتميز بالانسجام الهندسي البارع، لذلك عمد سبينوزا إلى جعل الأخلاق تُماثل في بنيتها ووظيفتها نظام الهندسة³⁸.

وحق عندما ينتج العقل الإنساني صوراً إبداعية على مستوى اللغة والشعر والقصة والنحت والرسم مثلاً، وهي موضوعات فنية ترتبط بشكل وثيق بالإحساس فإنه لا ينتجها بصورة مبتورة عن الواقع، إنما غاية ما هنالك أن العقل الإنساني يبدع عن طريق التركيب، فيخلق صوراً تبدو لنا جديدة للوهلة الأولى، لكنها في الحقيقة صور تركيبية لما هو موجود في الواقع بالفعل، إن التعبير عن هذه الحقيقة، حقيقة تطابق الفكر مع الواقع، من الواضح أنها تأخذ تعبيرات متعددة ويتم النظر إليها من زوايا مختلفة، فلسفية ومنطقية ورياضية وعلمية وتجريبية، لكنها في نهاية سُلّم البحث يمكن التعبير عنها بصورة أشمل على أنها إنما هي الحقيقة المبتوتة في الوعي الإنساني بوجود تطابق ما بين العقل والكون الفسيح بكل تمظهراته وتجلياته.

7. التكامل المعرفي: نظرة معاصرة للمعرفة والحياة:

لا أحد يدعي أن التكامل المعرفي صار اليوم نظرية متكاملة الأركان، ولكن يمكن القول إن هذا التوجه العلمي الجديد، هو دعوة جديدة للتفكير بشكل مختلف في المعرفة عموماً، والتركيز على الصلات الظاهرة والمضمرة القائمة بين مختلف العلوم والمعارف، وهذه الرؤية الجديدة للمعرفة ستكون مخرجاتها الإيجابية أكثر اعتباراً وأهمية، رغم الصعوبات والتحديات التي تواجهها في هذا المضمار، إن هذا التوجه يمكن وصفه أيضاً بالتوجه ما بعد التخصصي، أو العودة إلى الموسوعية، وهو توجه يجد مسوغاته الموضوعية في أزمة الركود القائمة بسبب انغلاق بعض التخصصات على نفسها، إنه إذن فعل تجاوزي من جهة وتأسيسي في الوقت نفسه.

ومثلما أن التكامل العلمي يمكن وصفه اليوم بالتوجه العلمي الجديد، فإن اللحظة الراهنة التي نعيشها يمكن وصفها أيضاً بكونها تأسيساً لحياة جديدة سوف تختلف بشكل كلي عن نمط الحياة القديم، ذلك أن ما يدور في فلك المجال المعرفي والعلمي سيكون له الأثر المباشر على كيفية ونوعية الحياة التي نعيشها، ومن هنا نستطيع أن نصف الدعوة إلى التكامل المعرفي على أنها دعوة إلى النظر إلى الحياة الإنسانية نظرة جديدة، عبر تشكيل مدركات جديدة، ولغة ومصطلحات جديدة للعلم والمعرفة والحياة، وهنا يمكن أن نستحضر الحقيقة التالية، وهي أن الثورات العلمية والمعرفية كانت دائماً في بعدها العميق ثورةً لتحسين جودة الحياة الإنسانية ومساعدة البشر على أن يعيشوا حياةً أفضل، على كل المستويات، في الصحة والتعليم والاقتصاد والإدارة والسياسة، وليس من قبيل المغالاة أن نقول إن الدعوة إلى التكامل المعرفي ليست سوى مظهر من مظاهر الثورة المعرفية الجديدة.

هذا الفهم الجديد للعلوم والمعارف يعد تحولاً مهماً على مستوى الفهم والممارسة للحياة الإنسانية، إن كل نظرية جديدة في مجال ما من مجالات المعرفة المختلفة، إنما هي فهمٌ جديدٌ للحياة الإنسانية وانعكاسٌ مباشرٌ على الواقع الإنساني، ومن شأنه أن يعدّل ممارساتنا في الحياة اليومية، ويجعلها أكثر مرونة وإبداعاً وابتكاراً، ولكن قبل أن نصل إلى

هذه الاستنتاجات، علينا أن نطرح مزيداً من الأسئلة الهامة، أسئلة لم نكن نطرحها في العقود الماضية، من قبيل أسئلة البيوتكنولوجي وما يرتبط بها من قضايا الاستنساخ والإجهاض والهندسة الوراثية والتعديل الجيني للأغذية، وأسئلة البيئة والمناخ، وأسئلة الذكاء الاصطناعي وانعكاساته المباشرة، والمخاوف التي يطرحها، لكن لن يكون لهذه الأسئلة، وحلولها المقترحة، أهمية ما لم يتم طرحها في سياق التكامل المعرفي، أي في سياق علاقة العلوم والمعارف بعضها ببعض.

إن الإفادة من هذا التوجه الجديد نحو التكامل المعرفي، لن يكون بين عشية وضحاها، إنه بكل تأكيد جهد مركب يحتاج إلى فحص عميق وشامل لمختلف العلوم والمعارف وإعادة ترتيبها وتصنيفها بما يتوافق مع متطلبات الراهن، ويبدو أننا نتجه نحو هذا المسار الذي يجعل من التكامل المعرفي بين العلوم واختلاطها بعضها ببعض هو «القاعدة تقريبا، وأخذت هذه العلوم في التزايد والامتزاج فيما بينها وأصبحت حدودها متحركة وغير ثابتة، وتوحدت في داخلها المعارف الأكثر تباعداً والأكثر اختلافاً... وهكذا يخرج كل علم من عزلته وتنشأ وحدة العلوم استناداً إلى تلك العلاقات العديدة الموجودة في نسيج الأجزاء المختلفة للمعرفة»³⁹.

هذا الجهد لن يتسنى لأفراد معزولين إنجازه، بقدر ما هو مسؤولية جماعية مشتركة يجب أن يتبناها المجتمع برمته وتأخذ طابعاً مؤسسياً، لا بد لهذا التوجه الجديد والمشروع الكبير أن يمر عبر مؤسسات أكاديمية وأن يتم تمريره للأجيال القادمة عبر المؤسسات التعليمية والتربوية، إن إنجاز هذا المشروع سيكون من شأنه إعادة بناء الإنسان على نحوٍ مختلف، مع إصلاح مكان الخلل التي تواجهها البشرية في هذا العصر على المستوى المادي والروحي، لا بد من إعادة الصلة الوثيقة بين المجالات المعرفية الطبيعية والاجتماعية، على اعتبار أن أحد أخطر الأزمات التي تواجهها البشرية اليوم هي التبعات الخطيرة لذلك الفصل الحاد ما بين الطبيعة والثقافة، بينما من المأمول أن ينتج

عن تبني التكامل المعرفي خصوصا في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية مثلا، أنها ستساعد البشرية على مزيد من التواصل والفهم ونبد الاختلاف والحروب.

إن التوجه العلمي الجديد القائم على ضرورة التكامل المعرفي يأتي من أجل تجاوز الأخطاء التي وقع فيها العلم الحديث، وتقويم مساره، ففي السياق المعرفي الغربي كان العلم ينمو ويتطور في اتجاه أحادي قائم على الرؤية المادية، مهملًا بذلك الأبعاد الروحية للإنسان وللعلم نفسه، وهو ما خلق نموذجا للإنسان مادي ذو بعد واحد مثلما وصفه "هاربرت ماركيز"، فمنذ مطلع القرن العشرين بدا واضحا أن المجتمع الغربي الذي أقام مدنيته على أساس العلم الحديث بات يواجه تحديات صعبة توشك على إفنائه، وأن الوعود التي كان يقيمها بشأن سعادة الإنسان ورفاهيته أصبحت محض إدعاء كاذب.

لقد خلق العلم الحديث مفاهيم جديدة عن الإنسان والطبيعة والكون، وهي مفاهيم قائمة على أساس مادي محض، برزت من خلاله الفلسفات العنثية والعدمية وخلقت ما أسماه "إدغار موران" Edgar Morin «الأنموذج المفقود»، أو «الكوكب التائه»، وبتعبير "مارتن هيدغر" Martin Heidegger «أصبح العلم أعمى ولا يرى طبيعة مصيره ولا مساره ولم يعد يفكر»⁴⁰، من هنا بدأ البحث عن حلول للخروج من الأزمة الناشئة عن أحادية العلم الغربي، وبدأت تظهر أصوات تنادي بما يسمى "التكامل المعرفي" كأحد الحلول الأساسية لتصويب مسيرة العلم ومسيرة الحضارة الإنسانية.

8. خاتمة:

ختاما بقي أن نقول، إن التكامل المعرفي لم يصل بعد إلى أن يكون لديه طابع النظرية المتسقة والشاملة، فهو ما يزال جدلا مفاهيميا، إلا أنه يبقى بحثا هاما يستقطب إليه باحثين ومفكرين ومثقفين من مختلف التخصصات ومن مختلف الثقافات العالمية، وكل المؤشرات تؤكد على ضرورة هذا المسعى وأهميته في ظل المستجدات الراهنة التي تعيشها البشرية اليوم، لذلك تنشأ الحاجة إلى ضرورة توطين هذا المفهوم، خصوصا في

عالمنا العربي، وذلك من أجل الإبداع وتحقيق التنمية والنهضة والخروج من التخلف وتحقيق التقدم ومحاربة الفكر الاقصائي.

لكن هذه الدعوة كما ليس من السهل تحقيقها، فثمة الكثير من العوائق والصعوبات في طريق الدعوة إلى التكامل المعرفي، إن هذا المشروع، مشروع التكامل المعرفي ليس مشروعاً مثالياً، ولعل البعض قد يراه مشروعاً حالمًا ومُتخيلاً أكثر منه مشروعاً واقعياً، وهذه الصعوبة في تحقيق الآمال المعقودة على هذا التوجه العلمي الجديد هي ما يحاول بعض الباحثين التنبيه إليها، فالحديث عن التكامل المعرفي في عمقه هو حديث على أرض متحركة كما أشرنا من قبل، وليس من السهل البناء على هذه الأرض المتحركة، فالتكامل المعرفي يواجه صعوبات ومعوقات كثيرة، إن على مستوى المنهج أو اللغة أو الموضوع أو الأهداف والغايات التي يسعى لتحقيقها، ثم إن الوعاء اللغوي لكل تخصص هو أيضاً أحد معوقات التكامل المعرفي بين العلوم، إن هذا الوعاء يمثل جداراً سميكاً بين تخصص وآخر وهو بحاجة إلى الاختراق والتجاوز، على أننا على وعي تام بأن هذه المهمة لن تكون سهلة أبداً.

من هنا تنشأ الحاجة إلى ما يمكن أن نسميه ديناميكية التكامل المعرفي، بمعنى أن التكامل المعرفة لا بد أن يراعي ميزة التطور والحركة التي تتميز بها الحياة المعاصرة في كل مجالاتها، ولا يجب أن ننظر إلى التكامل المعرفي كما لو كان مذهباً جاهزاً وغير قابل للاستبدال أو التطوير، بل إن الرهان هو العكس تماماً، أي أن يأخذ دعاة التكامل المعرفي بعين الاعتبار كل التحولات والمستجدات، فيعملون على الإضافة والتعديل والحذف في سياق الوعي بالديناميكية المطلوبة.

إن البناء الحضاري للإنسان والمجتمعات لا يمكن أن يكون إلا من خلال التكامل المعرفي، فالحضارة تستلزم خدمة المعارف بعضها لبعض، وانصهارها في بوتقة واحدة وهدف واحد يرمي في النهاية إلى خدمة الإنسان، ولن يكون الارتقاء الحضاري بهذا الإنسان إلا من خلال المعرفة التي تستجيب لضرورة العمل على خلق جسور للتواصل، أخذاً

وعطاءً، ما بين جميع العلوم والتخصصات، لذلك فإن أي خلل أو إرباك ناتج عن إقصاء أو تجاهل علم من العلوم أو فن من الفنون يعني إرباكاً وخللاً في الإنسان وفي البناء الاجتماعي والحضاري ذاته.

إن اختزال المعارف وتبسيطها وإقصاء بعض التخصصات العلمية أو الفنية من شأنه كبح كثير من الأسئلة الجادة والهامة، وبذلك تتعقد مهمة فهم العالم والكون والإنسان، بل إنه يستحيل الوصول إلى هذا الهدف في غياب تكامل معرفي يأخذ بعين الاعتبار العلاقة الاتصالية بين المعارف والفنون، والحقيقة أن خلق التكامل المعرفي ليس مهمة فردية ولكنها مهمة مجتمع كامل كما أشرنا من قبل، إنها ثقافة مجتمع، يؤمن بتداخل التخصصات ويؤمن بالحاجة إلى جميع العلوم والمعارف والفنون مادامت غايتها خدمة الإنسان والسعي لتحقيق سعادته، من خلال فهم أفضل للعالم والإنسان، أي من خلال رؤية كونية شاملة، بتعبير آخر يمكن القول إن تحقيق التكامل المعرفي هو مسعى حضاري، ويحتاج إلى وعي محدد وإلى زمن كاف حتى يتبلور هذا الوعي، ولذلك تبدو الدعوة إلى الخروج من ضيق التخصص العلمي إلى سعة وأفق التعدد العلمي والمعرفي أمر ضرورياً للنهضة والبناء الحضاري.

9. هوامش البحث:

¹ محمد همام، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، مركز نماء للدراسات والبحوث، لبنان، ط1، 2017، ص 55.

² محمد شوقي الزين، الثقافة في الأزمنة العجاف: فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2014، ص 725.

³ المرجع نفسه، ص 726.

⁴ أندريه لالاند، الموسوعة الفلسفية، المجلد الثاني (H-Q)، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، لبنان، ط2، 2001، ص 682.

⁵ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، لبنان، دط، 1982، ص 332.

⁶ سامي ذبيان وآخرون، قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ط1، 1990، ص 150.

- ⁷ المرجع نفسه، ص 150.
- ⁸ المرجع نفسه، ص 152 - 153.
- ⁹ المرجع نفسه، ص 152.
- ¹⁰ محمد عبد النور وإبراهيم لهزيل، أصول المعرفة التكاملية من خلال مفهوم الكلي الفلسفي، مجلة الحكمة للدراسات الاجتماعية، الجزائر، مجلد: 9، عدد: 4، 2012، ص 54.
- ¹¹ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ص 332.
- ¹² مراد وهبه، يوسف مراد والمذهب التكاملي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط، 1974، ص 47 - 48.
- ¹³ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، ص 392.
- ¹⁴ المرجع نفسه، ص 394.
- ¹⁵ القاضي عبد الجبار المعتزلي، شرح الأصول الخمسة، تحقيق: عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، مصر، ط3، 1996، ص 46.
- ¹⁶ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، ص 392 - 393.
- ¹⁷ فتحي حسن ملكاوي، منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ط 1، 2011، ص 25.
- ¹⁸ محمد همام، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، ص 30 - 31.
- ¹⁹ المرجع نفسه، ص 32.
- ²⁰ روبر بلانشي، نظرية المعرفة العلمية، ترجمة: حسن عبد الحميد، مطبعة دار المعرفة، الكويت، 1986، ص 95.
- ²¹ فتحي حسن ملكاوي، منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية، ص 57.
- ²² محمد همام، التداخل المعرفي دراسة في المفهوم، ضمن كتاب: التكامل المعرفي أثره في التعليم الجامعي وضرورته الحضارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 2012، ص 60.
- ²³ اقتضرت إشارتنا في سياق الحديث عن الأسرة المفاهيمية للتكامل المعرفي على ثلاثة مصطلحات أساسية فقط وهي: الموسوعية، ووحدة المعرفة، والتداخل المعرفي، وقد رأينا أن الإشارة إلى هذه المصطلحات تفي بغرض التنبيه على مدى ارتباط التكامل المعرفي بالعديد من المصطلحات، وليس المقام هنا للوقوف عليها جميعها وتحديد دلالاتها.
- ²⁴ المرجع نفسه، ص 64.
- ²⁵ المرجع نفسه، ص 88.
- ²⁶ فتحي حسن ملكاوي، منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية، ص 26.
- ²⁷ المرجع نفسه، ص 27.
- ²⁸ المرجع نفسه، ص 27 - 28.
- ²⁹ ناصر البعزاتي، مفاصل التفاعل بين المعارف، مجلة فكرونفد، المغرب، عدد 1، 1997، صفحة غير متوفرة.
- ³⁰ ندره اليازجي، دراسات في الحياة النفسية والاجتماعية، دار الغربال، سوريا، ط1، 1998، ص 215.

- ³¹ زكي نجيب محمود وأحمد أمين، قصة الفلسفة الحديثة، مؤسسة هنداوي، مصر، دط، 2020، ص 32.
- ³² أبو العلاء عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، مؤسسة دار الشعب، لبنان، ط1، 1990، ص 176.
- ³³ طلعت منصور، تنمية لغة العقل: استراتيجيات بناء التفكير ما وراء المعرفي، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط1، 2019، ص 67.
- ³⁴ روبر بلانثي، نظرية المعرفة العلمية، ص 100.
- ³⁵ ناصر البعزاتي، مفاصل التفاعل بين المعارف، صفحة غير متوفرة.
- ³⁶ علي زيغور، العقل والتجربة في الفلسفة العربية، دار النهضة العربية، لبنان، دط، 2011، ص 147.
- ³⁷ محمد حسين الطبطبائي، أسس الفلسفة والمذهب الواقعي ج1، تعريب: محمد عبد المنعم الخاقاني، دار المعارف للمطبوعات، لبنان، دط، 1981، ص 164.
- ³⁸ محمد شوقي الزين، الثقاف في الأزمنة العجاف: فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب، ص 539.
- ³⁹ روبر بلانثي، نظرية المعرفة العلمية، ص 98.
- ⁴⁰ محمد همام، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، ص 81.